



بدأت المعركة في سوريا تأخذ منحى جديداً يثبت تورط المجتمع الدولي المباشر في المؤامرة على الشعب السوري بهدف حرف مسار الثورة، وتأخير انهيار النظام.

لقد أيقنت الدول الكبرى أن انهيار الأسد قريب جداً، فسارعت إلى تكثيف جهودها وتوحيدها ابتداء من أمريكا مروراً بروسيا وصولاً إلى إيران.. من أجل تأخير هذا المصير، والتحكم بصورته، وبالقوى المؤثرة فيه.

عمل الغرب على توظيف همجية الأسد في مهمة تخريب البنية التحتية للبلد بهدف إضعافه وإشغاله - بعد سقوط الأسد - بأعباء الترميم وتعويض التهدم، لإعاقة أسباب نهوضه وتحوله إلى وجود قوي منافس لإسرائيل في المنطقة، حتى لقد صرخ جنرال إسرائيلي بأن: "النظام السوري حق لنا من خلال صراعه الدموي مع شعبه مالم نكن نتجرأ حتى على مجرد أن نحلم به من تدمير لسوريا"!!

الواقع أن أمن إسرائيل هو البوصلة الأساسية التي توجه مواقف الغرب من الثورة السورية، بالإضافة إلى اقتسام مناطق النفوذ، مع المحافظة على شبح الخطر الإيراني للضغط على دول الخليج وابتزازها.

بيد أن تشكل قوة عسكرية مؤثرة داخل سوريا جعل تحقيق هذه الأهداف غير مضمون، بل ربما غير ممكن. ولذلك كان مهماً البحث عن حلول أخرى تسمح للغرب بالتدخل جدياً في سوريا على طريقة نفوذها في دول الخليج، خاصة بعد أن أثبتت الجهود الاستخباراتية الغربية أن تجنيد عمالء مؤثرين، وحكومات عميلة من قادة الثورة ونشطائها، لم يكن بالسهولة التي توقعها الغرب الذي لم يدرك إلى الآن أن تغييراً فكريًا وأخلاقياً واجتماعياً حقيقياً وراسخاً ومستندًا إلى قاعدة قيمية ثابتة مستمددة من الإسلام ومعادية للغرب، هو الذي يصنع الأحداث ويسسيطر عليها.

بعد يأس (المجتمع الدولي!) وعجزه عن الوصول إلى حل للأزمة السورية يقلص الأخطار المتوقعة بعد سقوط النظام على مصالح الدول الكبرى في المنطقة، وقد تمثل ذلك العجز في تصريحات روسية الأخيرة المهاذنة للثورة، وروسية أكبر حليف للأسد، وشريك أساسى في لعبة دولية ماكراة تتوزع فيها الدول الكبرى الأدوار والمكاسب.

فإذا بالأمل يعود فجأة إلى هذه الدول، فنراها، بغرورها ومكرها المعتادين، ترجع إلى اسطوانة مبادئها الإنسانية المشروخة تحدّر بها شعوبها، وتمدّ النظام الأسد بكل ما يطيل عمره ويزيد معاناة الشعب السوري.

فما سرّ هذه التحولات وماذا تخفي وراءها؟

لقد منحت حرب الوقود والغذاء التي شنّها الأسد على شعبه فرصة جديدة للغرب لتأخير الجسم الثوري، والضغط على الثوار لتحصيل مكاسب تفاوضية، واستثمار الوقت للتدخل في ترتيب مرحلة ما بعد الأسد.

ويبدو أن الخطة التي اعتمدها الغرب لتحقيق ذلك تعتمد على أمرین:

الأول: توريط الثورة في صدامات طائفية (إعلامياً على الأقل) لإيجاد ذريعة لسحب الشرعية عن الثورة وتحويلها إلى صدام مسلح أو حرب أهلية أو طائفية، تمهدًا للتدخل الخارجي وتأسيس دولة علوية منفصلة في الساحل السوري.
وقد تعمّد النظام ارتكاب مجازر فظيعة مؤخرًا ليعزز المشاعر الانتقامية عند الثوار، ويجرهم إلى ردود فعل غير محسوبة تساویهم بالأسد في الاعتبار السياسي والأخلاقي (فليحذر الثوار!).

الثاني: الضغط على الثوار عن طريق خلق ساحة حرب موازية للمعارك العسكرية، يُستعمل فيها القوت والوقود لكسر إرادة الشعب السوري، وفرض خيارات مخزية عليه، وإنجائه - تحت ضغط المعاناة - إلى تسريع الجسم بأية كلفة ومهما كانت الأثمان، وابتزازه بآلام الناس لتحقيق مكاسب سياسية.

وقد صرّح الشيخ معاذ الخطيب رئيس الائتلاف السوري بهذا حين قال: "... وإذا بدأ تجويع شعب سورية لِجباره على قبول أية إملاءات فليتحمل الجميع النتائج ...".

ولكن الغرب الذي بدا في تعامله مع الثورة السورية مطمئناً إلى قوته مفترأً بها، يكرر أخطاءه ولا يعتبر بها، لم يدرك أن العقاب الجماعي وسياسة التجويع والحصار التي استعملها من قبل في العراق وغزة لم يكن لها أن تخضع الشعب السوري، وأن الإذلال الممنهج لن ينجح في كسر إرادة السوريين، وذلك للأسباب التالية:

- أنه حين لم ينجح الحصار في كسر إرادة الفلسطينيين في غزة، وقد سُدت عليها كل المنافذ، فإنه لا يتوقع أن ينجح الحصار في كسر إرادة السوريين، والثورا ينتزعون منافذ حدودية لهم في كل الاتجاهات بتسارع يثير الدهشة والإعجاب.

- أنه إذا كان المقصود من الحصار أن يساعد في تأخير الجسم، فإن الواقع أن الثورة السورية لم تعتمد أساساً على مقومات مادية في حدوثها، بل استمدت وقوتها من عدالة قضيتها، وستزداد هذه القضية وضوحاً وتمكيناً وانتشاراً في ظروف المعاناة المشتركة.

- ثم إن تراكم العوامل المادية ليس هو ما يضمن الجسم في الثورة السورية، فقد يتحقق الجسم فجأة بمقتل الأسد، أو السيطرة على موقع حساس، أو بانشقاق جماعي كبير..

- وهذا يعني أن قطع الإمدادات الإنسانية قد لا يضمن تأخير الجسم كذلك.

- أن الحصار لن يحقق هدفه في الضغط على الثوار، ولا في تحقيق تغيير حاسم في مسار الثورة، ولا في التوجه الشعبي العام.

إذ يمكننا أن نصنف الشعب السوري اليوم في ثلاثة فئات:

- **فئة الثوار** الذين رصدوا أنفسهم لحرب طويلة الأمد لا تنتهي إلا بتحقيق أهدافها الواضحة المجتمع عليها، وهم عاشوا الكارثة الإنسانية قبل أن تصبح شأنًا عاماً ومصاباً جماعياً بما تعرضوا له من حصار وملحقة وإبادة طالت أنفسهم وعائلاتهم وما ملكت أيديهم، ولم يتثنى ذلك كله عن هدفهم ولم يزدهم إلا إصراراً وثباتاً.
ولن يكون الحصار الجماعي اليوم إلا جولة جديدة في معركة الصمود والمواجهة.

- **الفئة الصامتة** المدجنة التي تشغله بهمومها الخاصة ولا تؤثر مواقفها في الأحداث ولا في مجرياتها، أو بالأحرى لا يؤثّر عنها مواقف أصلاً، فقد استطاع ظلم الأسد وقمعه الطويل تجذينها، وهي تعرف كيف تتعايش مع أي ضغط وتعتاد أي شكل من أشكال الظلم، ولن يُنتظر منها بسلبيتها وقوتها احتمالها أن تتدخل في الأحداث، ولن يؤثّر الحصار في موقفها أو يجرّها إلى تغيير ميزان القوى.

- **فئة منتفعة** من مؤيدي الأسد وتجار الحرب سيفتح لها الحصار باباً جديداً للاستغلال والاحتكار وابتزاز الناس ومحاربتهم في أقواتهم ولقمة عيشهم.
وهذه الفئة تعمّق الشقة بين النظام الأسدية والناس، وتشيع بينهم آمال الخلاص منه، فهي الواجهة المباشرة لمعاناتهم، والخلاص من الأسد يعني نهاية هذه المعاناة.

- إن ظروف الفلة تعود الإنسان على الصلابة والتماسك، ووحدة الله تحرك فيه خلق البذر والتكافل، وحين تتوحد المعاناة تضعف الفوارق الطبقية ويعيش الغني هم الفقير ويُسخو له بما في يده.

- بذلك المستوى يغدو الحصار مسكنراً جبراً شاملاً لإعداد المجتمع المسلم وتأهيله على خلق التكافل والتنافر والتواصي بالصبر والمرحمة.

- واضح أن السوريين تأقلموا فعلاً وبسرعة مذهلة مع ظروف الحصار، وبدؤوا يتعايشون معه كأمر واقع أو كثمن واجب السداد لاستحقاق النصر، مطلقين كل قوى الخلق والإبداع لديهم لتوفير وسائل بديلة تعينهم على تأمين ضروراتهم وتحقيق كفايتهم، لا يضرّهم تذمر المتذمرين ولا يعيقهم اعتراف المعترضين الذين لن ينفعهم اعتراضهم ولا تذمرهم في تغيير واقعهم المرير.

إن هذه العوامل مجتمعة تبين أن معركة الرغيف قد ترهق الشعب ولكنها لن تخضع للثوار، وأن سلاح الحصار قد يؤخر الجسم بيد أنه لن يحرّكه عن مساره.

وإن كان ذلك كله لا يخلِي الثوار من مسؤوليتهم المباشرة للتخفيف من المأزق الإنساني، وواجبهم لتقليص مخاطر الحصار الخانق وتحييد آثاره ما أمكن على مصير الثورة وعلى عموم المستضعفين، وذلك على ثلاثة مستويات:

المستوى المعيشي: يفرض الظرف الخانق على الثوار السعي لإيجاد بدائل؛ محلية أو مستوردة للمواد الأساسية تمنع احتكار شبكة النظام وتجار الحرب لها وابتزاز الناس بها، وتلبّي حاجات الناس الضرورية.
كما ينبغي عليهم العمل على نشر ثقافة الإيثار والمشاركة والالتزام بحد الكفاف على مبدأ "أرخصوها بالترك"، وتشجيع الابتكار لتحقيق الاكتفاء الذاتي، ويمكن الاستفادة كثيراً من التجربة الفلسطينية في غزة في هذا المجال.

المستوى النفسي: على الرغم من أن الجسم سيكون عسكرياً، فإنه ينبغي ألا يجعلنا هذا نغفل عن الحرب النفسية التي يشتغل عليها النظام، ويحسن الخارج استغلالها لتحقيق مآربه الوصائية.

وإن الثورة السورية قد دخلت مع بداية الحصار مرحلة جديدة وخطرة في الصراع تعتمد على طول النفس وقوه الصبر، فالمعركة القادمة هي معركة صبر يفوز فيها الأطول نفساً، والأقدر على الصمود أمام الضغوط وعدم الخضوع لها. ومهما ضاقت الظروف، واشتدت المحن، وتکاثر الأعداء فلا يجوز أن يهزّ هذا إيمان الثوار بحتمية النصر، والأمل بقربه، مستلهمين قدوتهم وحببهم محمد - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام الذين صبروا على مرّ الحصار وابتلاءاته ثلاثة سنين من دون أن تُكسر إرادتهم، أو تهتزّ عقيدتهم.

المستوى السياسي: إنه من الضروري عدم توقيع الدعم من الغرب، وعدم استجداء هذا الدعم، وعدم الخضوع لأي ضغط في سبيل الحصول عليه، فمصير الثورة لن يحسنه إلا الداخل، وسيخضع الغرب لشروط الأكثر سيطرة ونفوذاً على الأرض. ومع بدء الحصار دخلت الثورة السورية مرحلة جديدة صار فيها الغرب طرفاً مباشراً في النزاع، بعد أن ظل طوال المرحلة الماضية مراقباً خارجياً يعتمد على الأسد في ضرب الثورة، ويقدم له الدعم والتيسير اللازمين.

وهذا يقتضي من الثوار فهم طبيعة الصراع، وميزان المصالح المتحكم به، ووعي عناصر قوة الثورة، وما لديها من وسائل الضغط، والندية في المفاوضة، والجرأة في اتخاذ المواقف، والسعى لتحييد الغرب عسكرياً وسياسياً عن طريق الضغط عليه بمصالحه وبشروط الأمر الواقع، وإلزام مؤسساته الإنسانية بواجبها تجاه الكارثة الإنسانية التي يعيشها الشعب السوري بغض النظر عن طبيعة الصراع القائم.

ما أردنا أن نقوله أن المرحلة القادمة من الثورة ليست معركة مع النظام الذي لم يبق منه إلا مفاصل هشة وشيكه الانهيار، ولكنها معركة مع إرادات دولية عظمى تتصارع على الغنائم والنفوذ، وخطط غريبة تخشى المد الإسلامي وتريد ضمان مصالحها وأمن إسرائيل في المنطقة، وعدة هذه المعركة تختلف عن عدتها ضد النظام، وتلقي على الثوار مسؤوليات جساماً عليهم أن ينهضوا بها، متحلين بالصبر وقوة الإرادة، والإيمان بالقدرة على الصمود أمام القوى الخارجية، لأن هذه القوى لا تملك الأرض ولا تضمن أي شيء فيها، وإذا لم يسمح الثوار لها بذلك، وهم أصحاب النفوذ، فمن يضمن لها ذلك!

المصادر: